السنوسي محمد السنوسي
ماجستير الآداب في الدراسات الإسلامية

# الأسرة.. تحديات التماسك والتواد

على مر الأزمان والأماكن، واختلاف الأجيال والثقافات، تبدو الأسرة قاسما مشتركا بين بني البشر؛ لا تخلو منها أمة، ولا تجهلها حضارة؛ كيف لا، ومنذ أن هبط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض قد تشكلت منهما النواة الأولى للبشرية، والصورة الأولى للأسرة التي عنها تناسل سائر الناس، وتفرعت جميع الأسر.. فالبشرية لم تبدأ «فردا»، تلك كانت مرحلة سابقة على النزول إلى الأرض، وإنما بدأت «أسرة»!

ولهذا، فالأسرة فطرة وركيزة اجتماعية معا: فالرجل يميل لشريكته في الأسرة؛ إذ الزوجية قانون الحياة: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩)، والمجتمع يتشكل من مجموع عريض من الأسر: فالأسرة نواة المجتمع، وركيزته الأساسية.

ولا يخفى أنه كلما كانت الأسرة قوية متماسكة فاعلة، نابضة بالحياة، فياضة بالمودة والرحمة؛ كان ذلك عونا للرجل والمرأة ليقوم كل منهما بوظيفته خير قيام، وعونا للمجتمع ليقوم هو أيضا بوظيفته خير قيام.

وأي محاولة لتجاوز كيان الأسرة، سواء بالهدم ليحل محلها المجتمع في الرعاية والتربية، أو بإيجاد أنواع شاذة ترتكس في وهدة الشهوة، هي محاولة تخالف أصل النشأة التي جعل الله الناس عليها، وتضاد الفطرة

السليمة التي لم يصبها انحراف!

## ضرورة الأسرة

وإذا كانت الأسرة على هذا النحو من التناسق مع الفطرة السوية التي لم تتلوث ولم تنحرف، ومن التناغم مع طبيعة المجتمع وتكوينه ووظيفته: فإنها حينئذ تكون على مستوى كبير من الأهمية والضرورة.

فأهمية الأسرة وضرورتها تتبدى لنا من عدم استطاعة الرجل والمرأة أن يقوما بوظائفهما إلا من خلال هذا الكيان المتماسك المتناغم المترابط، أي الأسرة: فالحياة لا تصلح والناس فرادى لا رباط بينهم.. إن الحياة حينئذ ستنقرض بعد فترة قصيرة، ولن تتتابع الأجيال تحمل راية إعمار الأرض جيلا بعد آخر.. هذا إذا توقف التناسل بتوقف إنشاء كيان الأسرة.

وأما إذا حاول البعض أن يتجاوز هذه «المؤسسة الفطرية»، أي الأسرة، وظن أن الزواج ليس إلا لإفراغ الشهوة، التي يمكن أن تجد طريقها خارج الإطار الفطري الذي يرضاه الله وتستحسنه العقول المستقيمة.. وظن أيضا أن مسألة تربية الأبناء يمكن أن تتوافر لها مؤسسات من المجتمع تغني عن الوظيفة الثانية للأسرة، وهي التربية والرعاية.. فإن هذا الظن هو عين الوهم والخداع والتزييف!

ذلك أن محاولات تجاوز الأسرة، وترك الحبل على غاربه لداعي الشهوة، واتباع غواية الشيطان وحديث النفس الأمارة بالسوء: لم ينتج عنها إلا مزيد من الانحلال والتفكك، ولم تعد على المجتمعات التي سلكت ذلك إلا بالسلب والتيه[1]!

إن الكيان الأسري تتعدى فوائده ما هو شائع من الحفاظ على الأعراض وتربية النشء تربية صحيحة، إلى ترسيخ قيم أخرى كثيرة، ليس أقلها تعويد أفراد الأسرة على المسؤولية ومهارات القيادة، وعلى قيم الإيثار والتضحية، وعلى أن المرء لم يخلق لنفسه ولا ينبغي أن يعيش لذاته.. وإنما يحقق ذاته من خلال دور اجتماعي يضطلع به، ومسؤولية ينجح في القيام بها على النحو المرجو.. إضافة إلى إيجاد الدافع للعمل واكتساب المال، وإنفاقه حسب الاحتياجات والأولويات.

وبإيجاز: فإن الأسرة توجد للحياة معنى، وتحقق للإنسان ذاته، وتفسح له آفاقا ممتدة من الأمل.

## أهداف الأسرة

إذن، الأسرة تهدف أول ما تهدف إلى إيجاد سبيل شرعي فطري، أي يقره الشرع ويوافق الفطرة، لإشباع الشهوة.. وهذا مقصد مهم من مقاصد الزواج، أي الاستعفاف؛ ولا ينبغي التقليل من هذا المقصد تحت دعاوى براقة أو خداعة، مثل الزهد، والإقلال من متاع الدنيا.

والهدف الثاني: تربية النشء تربية صحيحة؛ فلن يجد الطفل مثل حضن أبويه ورعايتهما؛ بل إن تربية الأبناء تعود بالنفع على الآباء أنفسهم، وتمثل لهم ضرورة مثلما هي للأبناء ضرورة! وانظروا إلى الأسر التي حرمت نعمة الذرية كيف تعيش غير سعيدة، وكيف تمضي عليها الأيام في كدر! ولهذا امتن الله على عباده بنعمة الأولاد فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَٰنًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ (الشورى:٤٩-٥٠).

الهدف الثالث: إكساب أفراد الأسرة، من الزوج والزوجة والأبناء، مهارات القيادة وقيم المسؤولية، والخروج بالإنسان من ضيق الذات إلى فضاء المجتمع، ومن «أنا» إلى «نحن».. فالأسرة «مجتمع مصغر»: فيه قائد ورعية، ويلزمها التعود على التدبير والتخطيط والتضحية والإيثار والشورى والمبادرة، وكل ما يلزم «الأسرة الكبيرة»/ المجتمع، من قيم ومهارات! ولو اكتسب المرء هذه القيم من خلال «مجتمعه المصغر»/ الأسرة، لسهل عليه أن يلتزم بها وينقاد لها في «أسرته الكبيرة»/ المجتمع.

## تميز الإسلام في التأسيس

والإسلام يتميز في تأسيسه الأسرة تميزا لافتا؛ إذ هو لم ينظر للأسرة من حيث التكوين المادي فحسب، علاقة الرجل بالمرأة جسيا؛ وإنما راعى التكوين النفسي والروحي، حين أسسها على المودة والرحمة؛ بل جعل ذلك هو الأساس الذي ينصلح به التكوين المادي. فماذا يتبقى من الأسرة إن نزعت منها المودة والرحمة غير بناء مهلهل!

فقال سبحانه في معرض الامتنان على عباده: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١). فمن تمام رحمة الله

تعالى ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة[2].

كما أن الإسلام شرع جملة من التوجيهات والآداب قبل تكوين الأسرة وبعدها، من شأنها أن تحافظ على هذا الكيان مترابطا متماسكا، وتجعله فاعلا في الحياة، ناشرا الخير والمعروف.. فندب إلى حسن اختيار الزوجة طبقا لمعيار الدين والخلق، وحافظ على الطفل وهو جنين لم يخرج للحياة بعد، وأمر بتربيته تربية حسنة، ورصد الأجر لحسن القيام على أمر الزوجة والأبناء.. حتى في التأديب جعل آدابا ينبغي الالتزام بها، لكي يؤدي التأديب الهدف منه، ولا ينقلب إلى نوع من القسوة وإهانة كرامة الإنسان..

وجاءت سيرة النبي ﷺ مع أزواجه لتقيم النموذج العملي في رعاية الأسرة والقيام على ما يصلحها، وتأسيسها على المودة والرحمة والتفاهم والتكامل؛ حتى في خدمة أهل البيت، مما يأنف عنه الرجال عادة، كان ﷺ مشاركا لأهل بيته فيما يحتاجون؛ فحين سئلت السيدة عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله (تعني خدمة أهله) فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة»[3]. فضلا عن الحرص على إدخال السرور عليهم[4]، والتجاوز عن الهفوات[5]، والوفاء لذكراهم بعد الرحيل[6].

## تحديات الأسرة

لا شك أن الأسرة تواجه تحديات جساما تتناسب مع أهميتها وخطورة وعظم المسؤوليات والآمال المعلقة عليها؛ فكلما كان الأمر عظيما كانت تحدياته على قدر ذلك! وهذه التحديات يكون منها ما هو قبل الزواج، وما هو بعده.

- تحديات ما قبل الزواج: فقبل الزواج هناك تحدي إحسان الاختيار وعدم الانسياق لمظاهر خادعة غير دالة على الجوهر؛ من حيث التكوين الخلقي والنفسي، الذي أساسه الدين والقيم والبيئة الجيدة؛ مما نجده في السنة النبوية فيما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، وحسبها، ودينها، وجمالها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك»[7]. ونجده في هذا التحذير: «إياكم وخضراء الدمن. فقيل: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء»[8].

وهذا يلفت الأنظار إلى أهمية عقد دورات تدريبية على كيفية اختيار شريك الحياة، والمواصفات التي ينبغي توافرها، وكيفية استطلاع القيم والعادات المشتركة التي يمكن أن نستشف من خلالها وجود مساحة جيدة للتفاهم يمكن البناء عليها.

فللأسف، يغيب هذا الوعي عن شبابنا قبل الزواج، لنفاجأ بأن التركيز يكون على زاوية واحدة، هي الشكل والمظهر، بينما يغيب الانتباه لما هو أكثر أهمية، أي الجوهر!

وقد تكون ضغوطات الحياة دافعا للسير في ترجيح معايير معينة عند الاختيار، تتصل بالشكل أو الوضع المادي.. ثم نصحو بعد ذلك على مشكلات لا حصر لها، وعلى اكتشاف غياب التفاهم وعدم وجود مساحة مشتركة!

- تحديات ما بعد الزواج: وأما بعد الزواج فالتحديات كثيرة ومتنوعة، أهمها: استدامة المودة، وتحديات اقتصادية، واجتماعية، وثقافية.

- استدامة المودة: فإذا كانت المودة والرحمة منهج الأسرة، وسياج الحفاظ عليها من عوامل الفتور والشقاق؛ فإن المطلوب أن يكون الزوجان على إدراك بأهمية استدامة هذه المودة والرحمة؛ سواء من حيث التخلق بأخلاق الرحمة والصفح والعفو، والتحلي بالأدب وحفظ اللسان وكتمان السر واحترام المقام ومراعاة الخاطر.. أو من حيث معرفة مهارات الحياة الزوجية التي تستبقي المشاعر الجياشة والحب المتوهج..

فالحياة بتقلباتها وانشغالاتها قد تنسي الزوجين أن يهتما بهذا الجانب؛ مما تنتج عنه مشكلات لاحقة وقد لا يعرف سببها؛ بينما الحقيقة هي أن خفوت داعي المودة والرحمة، وإهمال العناية بذلك، هو السبب؛ لأنه الأساس الذي تقوم عليه الحياة الأسرية.

- تحديات اقتصادية: الأسرة عليها أعباء مالية تزداد مع تتالي الأيام وإنجاب الأبناء؛ وعلى الزوجين أن يوفقا بين الدخل والإنفاق، وأن يرتبا الأولويات والحاجات تبعا لذلك، وأن يحذرا من تراكم الأعباء الاقتصادية، فإن ذلك يدفع للاستدانة ويحمل الأسرة أكثر من طاقتها، وتكون له آثار على الاستقرار والهدوء اللازمين لحياة أسرية ناجحة مطمئنة.

وإدارة شؤون الأسرة اقتصاديا لها مهارات، يمكن تعلم أساسياتها من خلال دورات ما قبل الزواج، بجانب التعلم من التجارب والأخطاء بعد الزواج.. المهم ألا يغيب عن بال